تفسير سورة النمل
وهى مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ربع ﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ (١) هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ
فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ (٤) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى
ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) ﴾

قد تقدم الكلام في « سورة البقرة » على الحروف المقطعة فى أوائل السور .

وقوله: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ ﴾ أى: هذه آيات ﴿ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : بين واضح ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه ، وعمل بما فيه ، وأقام الصلاة المكتوبة ، وآتى الزكاة المفروضة ، وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال ، خيرها وشرها ، والجنة والنار ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ الآية [فصلت: ٤٤]. وقال : ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم : ٩٧] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى: يكذبون بها ، ويستبعدون وقوعها ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أى : حسنّا لهم ما هم فيه ، ومددنا لهم فى غيهم يتيهون فى ضلالهم . وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ الآية [الأنعام : ١١٠] ، ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة ﴿ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ أى : ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يامحمد ـ قال قتادة : ﴿ لَتُلَقَّى ﴾ أى : لتأخذ ﴿ الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : من عند حكيم عليم ، أى : حكيم فى أوامره ونواهيه ، عليم بالأمور جليلها وحقيرها ، فخبره هو الصدق المحض ، وحكمه هو العدل التام ، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام : ١١٥] .

﴿ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ
تَصۡطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٨)
يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٩) وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ
يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ
رَّحِيمٞ (١١) وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ

obeikandl.com

قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكراً له ما كان من أمر موسى عليه السلام ، كيف اصطفاه الله وكلمه ، وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة ، والأدلة القاهرة ، وابتعثه إلى فرعون وملئه ، فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له ، فقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ ﴾ أى : اذكر حين سار موسى بأهله ، فاضل الطريق ، وذلك فى ليل وظلام ، فآنس من جانب الطور ناراً ، أى : رأى ناراً تأجج وتضطرم ، فقال ﴿ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أى : عن الطريق ﴿ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أى : تستدفئون به . وكان كما قال ، فإنه رجع منها بخبر عظيم،واقتبس منها نوراً عظيماً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أى : فلما أتاها رأى منظراً هائلا عظيماً ، حيث انتهى إليها ، والنار تضطرم فى شجرة خضراء ، لا تزداد النار إلا توقداً ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء. قال ابن عباس وغيره:لم تكن ناراً ، إنما كانت نوراً يتوهج . وفى رواية عن ابن عباس : نور رب العالمين. فوقف موسى متعجباً مما رأى ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ ﴾ قال ابن عباس : تقدس. ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أى:من الملائكة. قاله ابن عباس،وعكرمة ، وسعيد بن جبير . وروى ابن أبى حاتم عن أبى موسى ﷺ قال:قال رسول الله ﷺ :« إن الله لاينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ». زاد المسعودى : « وحجابه النور ـ أو النار لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه كل شىء أدركه بصره » . ثم قرأ أبو عبيدة: ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ . وأصل هذا الحديث مخرج فى الصحيح لمسلم(١) .

وقوله: ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى:الذى يفعل ما يشاء ولا يشبه شيئا من مخلوقاته، ولا يحيط به شىء من مصنوعاته، وهو العلى العظيم ، المباين لجميع المخلوقات، ولايكتنفه الأرض والسموات ، بل هو الأحد الصمد ، المنزه عن مماثلة المحدثات .وقوله: ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾:أعلمه أن الذى يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز، الذى عز كل شىء وقهره وغلبه، الحكيم فى أفعاله وأقواله .

ثم أمره أن يلقى عصاه من يده ؛ ليظهر له دليلا واضحاً على أنه الفاعل المختار، القادر على كل شىء . فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت فى الحال حية عظيمة هائلة فى غاية الكبر،وسرعة الحركة مع ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ والجان:ضرب من الحيات، أسرعه حركة ، وأكثره اضطرابا ـ وفى الحديث : نهى عن قتل جِنَّان البيوت(٢) ـ فلما عاين موسى ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أى:لم يلتفت من شدة فرقه ، ﴿ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ أى: لا تخف مما ترى، فإنى أريد أن أصطفيك رسولا، وأجعلك نبياً وجيهاً .

وقوله: ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾:هذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل شىء ثم أقلع عنه ، ورجع وأناب ، فإن الله يتوب عليه،كما قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٢] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ

(١) مسلم (١٧٩ / ٢٩٣) .

(٢) البخارى (٣٣١٣) .

نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] والآيات فى هذا كثيرة جداً . وقوله: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ :هذه آية أخرى،ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار،وصدق من جعل له معجزة ، وذلك أن الله ـ تعالى ـ أمره أن يدخل يده فى جيب درعه ، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة، كأنها قطعة قمر، لها لمعان يتلالأ كالبرق الخاطف. وقوله: ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ أى: هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن، واجعلهن برهانا لك إلى فرعون وقومه ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾. وهذه هى الآيات التسع التى قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الإسراء:١٠١] كما تقدم تقرير ذلك هنالك.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أى: بينة واضحة ظاهرة ، ﴿ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا وانقلبوا صاغرين ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا ﴾ أى: فى ظاهر أمرهم ﴿ وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ﴾ أى: علموا فى أنفسهم أنها حق من عند الله ، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ أى: ظلما من أنفسهم ، سجية ملعونة ﴿وَعُلُوًّا﴾ أى: استكباراً عن اتباع الحق ؛ ولهذا قال: ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى: انظر يا محمد كيف كان عاقبة كفرهم ، فى إهلاك الله إياهم ، وإغراقهم عن آخرهم فى صبيحة واحدة . وفحوى الخطاب يقول : احذروا أيها المكذبون بمحمد، الجاحدون لما جاء به من ربه، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والاحرى ؛ فإن محمداً ﷺ أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى،بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده فى نفسه وشمائله، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به،وأخذ المواثيق له ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه داود وابنه سليمان ، عليهما من الله السلام ، من النعم الجزيلة، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة،وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة ، والملك والتمكين التام فى الدنيا، والنبوة والرسالة فى الدين ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . قال ابن أبى حاتم : كتب عمر بن عبد العزيز: إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها،إلا كان حمده أفضل من نعمه ، لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل؛قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وأى نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان ،عليهما السلام .

وقوله: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ أى: فى الملك والنبوة ، وليس المراد وراثة المال؛إذ لو كان كذلك

لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنه قد كان لداود مائة امرأة . ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة؛ فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ فى قوله : « نحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة » (١).

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، أى : أخبر سليمان بنعم الله عليه ، فيما وهبه له من الملك التام ، والتمكين العظيم، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير.وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً، وهذا شىء لم يعطه أحد من البشر ـ فيما علمناه ـ مما أخبر الله به ورسوله. ومن زعم من الجهلة والرعاع أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بنى آدم قبل سليمان بن داود ـ كما يتفوه به كثير من الناس ـ فهو قول بلا علم .ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة ؛ إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم، ويعرف ما تقول ، فليس الأمر كما زعموا ، ولا كما قالوا ، بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال . ولكن الله ،سبحانه وتعالى ، كان قد أفهم سليمان،عليه السلام ،ما يتخاطب به الطيور فى الهواء ، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها ؛ ولهذا قال : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾أى: مما يحتاج إليه الملك ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أى: الظاهر البين لله علينا . روى الإمام أحمد عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:« كان داود،عليه السلام، فيه غيرة شديدة، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب ، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع » . قال :« فخرج ذات يوم وأغلقت الأبواب،فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار،فقالت لمن فى البيت : من أين دخل هذا الرجل ، والدار مغلقة ؟ والله لنفتضحن بداود ، فجاء داود ،عليه السلام، فإذا الرجل قائم وسط الدار ، فقال له داود : من أنت ؟ قال : الذى لا يهاب الملوك ، ولا يمتنع من الحجاب . فقال داود : أنت والله إذاً ملك الموت . مرحباً بأمر الله ، فتزمل داود ،عليه السلام ، مكانه حتى قبضت نفسه ، حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس ، فقال سليمان ،عليه السلام ، للطير : اظلى على داود ، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهما الأرض ، فقال لها سليمان : اقبضى جناحا جناحا » قال أبو هريرة : يارسول الله ، كيف فعلت الطير ؟ فقبض رسول الله ﷺ يده ، وغلبت عليه يومئذ المضرحية (٢) . قال أبو الفرج بن الجوزى : المضرحية : النسور الحمراء .

وقوله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أى : وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير، يعنى: ركب فيهم فى أبهة وعظمة كبيرة فى الإنس ، وكانوا هم الذين يلونه، والجن وهم بعدهم فى المنزلة ، والطير ومنزلتها فوق رأسه ، فإن كان حر أظلته منه بأجنحتها . وقوله: ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أى: يكف أولهم على آخرهم ؛ لئلا يتقدم أحد عن منزلته التى هى مرتبة له. قال مجاهد:جعل على كل صنف وزعة،يردون أولاها على أخراها ؛لئلا يتقدموا فى المسير، كما يفعل الملوك اليوم . وقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ ﴾أى: حتى إذا مر سليمان، عليه السلام ، ممن معه من الجيوش والجنود على وادى النمل، ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ

(١) البخارى (٦٧٢٧).

(٢) المسند (٢ / ٤١٩) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨ / ٢٠٦): «فيه المطلب بن عبد الله بن حنطب وثقه أبو زرعة وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح» .

وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ أى : خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم، ففهم ذلك سليمان، عليه السلام، منها ﴿ فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ﴾ أى: ألهمنى أن أشكر نعمتك التى مننت بها على، من تعليمى منطق الطير والحيوان، وعلى والدى بالإسلام لك، والإيمان بك ﴿ وأن أعمل صالحا ترضاه ﴾ أى: عملا تحبه وترضاه ﴿ وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ أى : إذا توفيتنى فألحقنى بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك. ومن قال من المفسرين: إن هذا الوادى كان بأرض الشام أو بغيره، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها.

والغرض : أن سليمان، عليه السلام، فهم قولها، وتبسم ضاحكاً من ذلك، وهذا أمر عظيم جداً. وقد ثبت فى الصحيح ـ عند مسلم ـ عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال : « قرصت نبيا من الأنبياء نملة، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه، أفى أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح ؟ فهلا نملة واحدة ! »(١).

﴿ وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين (٢٠) لأعذبنه عذابا شديدا أو لأاذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين (٢١) ﴾

قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما، عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندسا، يدل سليمان عليه السلام على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء فى تخوم الأرض، كما يرى الإنسان الشىء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا دلهم عليه أمر سليمان، عليه السلام، الجان فحفروا له ذلك المكان، حتى يستنبط الماء من قراره، فنزل سليمان، عليه السلام يوما، بفلاة من الأرض، فتفقد الطير ليرى الهدهد، فلم يره ﴿ فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾. حدث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفى القوم رجل من الخوارج، يقال له: «نافع بن الأزرق»، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس، فقال له : قف يا بن عباس، غلبت اليوم ! قال: ولم؟ قال: إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء فى تخوم الأرض، وإن الصبى ليضع له الحبة فى الفخ، ويحثو على الفخ تراباً، فيجىء الهدهد ليأخذها فيقع فى الفخ، فيصيده الصبى. فقال ابن عباس : لولا أن يذهب هذا فيقول: رددت على ابن عباس، لما أجبته. فقال له : ويحك ! إنه إذا نزل القدر عمى البصر، وذهب الحذر. فقال له نافع: والله لا أجادلك فى شىء من القرآن أبدا.

وقوله: ﴿ لأعذبنه عذابا شديدا ﴾: قال ابن عباس: يعنى نتف ريشه. وقوله: ﴿ أو لأذبحنه ﴾ يعنى: أقتله ﴿ أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ بعذر واضح بين.

﴿ فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين (٢٢) إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم (٢٣) وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون (٢٤)

(١) مسلم (٢٢٤١ / ١٤٩).

obeikandi.com

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾ سجدة

يقول تعالى : ﴿ فَمَكَثَ ﴾ الهدهد ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أى : غاب زماناً يسيراً ، ثم جاء فقال لسليمان: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أى : اطلعت على مالم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أى : بخبر صدق حق يقين . وسبأ : هم حمير ، وهم ملوك اليمن . ثم قال : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ قال الحسن البصرى: وهى بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ . وقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى: من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يعنى: سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب ، وأنواع الجواهر واللآلئ . قال علماء التاريخ: وكان هذا السرير فى قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة ، تغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحاً ومساءً، ولهذا قال : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى: عن طريق الحق ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ معناه : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ أى: لا يعرفون سبيل الحق التى هى إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من شىء من الكواكب وغيرها، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٧] . وقوله : ﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾: قال ابن عباس: يعلم كل خبيئة فى السماء والأرض. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة ، وغير واحد . وقال سعيد بن المسيب: الخبء: الماء. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: خبء السموات والأرض: ما جعل فيها من الأرزاق: المطر من السماء، والنبات من الأرض . وهذا مناسب من كلام الهدهد، الذى جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره، من أنه يرى الماء يجرى فى تخوم الأرض ودواخلها .

وقوله: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أى: يعلم ما يخفيه العباد، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال. وهذا كقوله تعالى: ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد: ١٠] . وقوله: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أى: هو المدعو الله ، وهو الذى لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذى ليس فى المخلوقات أعظم منه . ولما كان الهدهد داعيا إلى الخير ، وعبادة الله وحده والسجود له ، نهى عن قتله ، كما روى عن أبى هريرة ، قال : نهى النبى ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصُّرَد . وإسناده صحيح (١) .

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ربع

(١) المسند (٣٠٦٧) وقال الشيخ احمد شاكر : «إسناده صحيح» وأبو داود (٥٢٦٧) وابن ماجه (٣٢٢٤).

يقول تعالى مخبراً عن قيل سليمان، عليه السلام ، للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم : ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ ﴾ أى أصدقت فى إخبارك هذا ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فى مقالتك ، فتتخلص من الوعيد الذى أوعدتك ؟ ﴿ اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ وذلك أن سليمان ، عليه السلام ، كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها . وأعطاه لذلك الهدهد فحمله ، وجاء إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس ، إلى الخلوة التي كانت تختلى فيها بنفسها ، فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها ، ثم تولى ناحية أدبًا ورياسة ، فتحيرت مما رأت ، وهالها ذلك ، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ، ففتحت ختمه وقرأته ، فإذا فيه: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها، ثم قالت لهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ تعنى بكرمه : ما رأته من عجيب أمره ، كون طائر أتى به فألقاه إليها ، ثم تولى عنها أدباً . وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأته عليهم: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .فعرفوا أنه من نبى الله سليمان،وأنه لا قبل لهم به.وهذا الكتاب فى غاية البلاغة والوجازة والفصاحة فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها ، قال العلماء:ولم يكتب أحد ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قبل سليمان،عليه السلام.وقال ميمون بن مهران: كان رسول الله ﷺ يكتب :باسمك اللهم، حتى نزلت هذه الآية، فكتب:﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ . وقوله: ﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ قال قتادة :يقول: لا تجبروا على﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ . قال ابن عباس : موحدين . وقال سفيان بن عيينة : طائعين .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم فى أمرها ، وما قد نزل بها؛ولهذا قالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ أى : حتى تحضرون وتشيرون ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أى : منُّوا عليها بعَددهم وعُدَدهم وقوتهم،ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا : ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ أى : نحن ليس لنا عاقة ولا بنا بأس ، إن شئت أن تقصديه وتحاربيه ، فما لنا عاقة عنه. وبعد هذا فالأمر إليك،مرى فينا برأيك نمتثله ونطيعه.قال الحسن البصرى، رحمه الله : فوضوا أمرهم إلى عا : تضطرب ثدياها،فلما قالوا لها ما قالوا،كانت هى أحزم رأياً منهم،وأعلم بأمر سليمان ، وأنه لا قبل بها بجنوده وجيوشه، وما سخر له من الجن والإنس والطير،وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعا،فقالت لهم: إنى أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه، فيقصدنا بجنوده،ويهلكنا بمن معه ، ويخلص إلى وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا ؛ ولهذا قالت : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ قال ابن عباس: أى إذا دخلوا بلداً عنوة أفسدوه، أى:خربوه ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أى:وقصدوا من فيها من الولاة والجنود،فأهانوهم غاية الهوان،إما بالقتل أو بالأسر . وقال ابن عباس:قالت بلقيس:﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ قال الرب ، عز وجل :

﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ . ثم عدلت إلى المهادنة والمصالحة والمسالمة والمخادعة والمصانعة، فقالت : ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي : سأبعث إليه بهدية تليق به وانظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك ويكف عنا، أو يضرب علينا خراجا نحمله إليه في كل عام ، ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا. قال قتادة : رحمها الله ورضي عنها، ما كان أعقلها في إسلامها وفي شركها !! علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس . وقال ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ذكر غير واحد من المفسرين، من السلف وغيرهم :أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك . والظاهر أن سليمان، عليه السلام، لم ينظر إلى ما جاؤوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل أعرض عنه، وقال منكراً عليهم: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ أي: أتصانعوني بمال لأتركك على شرككم و ملككم؟! ﴿ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ أي: الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ أي : أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف . قال ابن عباس : أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة. فلما رأت رسلها ذلك قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا. وفي هذا دلالة على جواز تهيؤ الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد.

﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي: بهديتهم، ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ أي : لا طاقة لهم بقتالهم ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا ﴾ أي: من بلدهم، ﴿ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أي: مهانون مدحورون .

فلما رجعت إليها رسلها بهديتها، وبما قال سليمان، سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة ، معظمة لسليمان ، ناوية متابعته في الإسلام . ولما تحقق سليمان ، عليه السلام، قدومهم عليه ووفودهم إليه ، فرح بذلك وسره .

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

قال قتادة: لما بلغ سليمان أنها جائية ، وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه ، فكره أن يأخذه بعد إسلامهم . وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم مع دمائهم فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾. وهكذا قال عطاء الخراساني . ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ قال مجاهد: أي مارد من الجن ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ قال ابن عباس: يعني: قبل أن تقوم من مجلسك. وقال

مجاهد: مقعدك ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ قال ابن عباس: أى قوى على حمله، أمين على ما فيه من الجوهر. فقال سليمان، عليه السلام : أريد أعجل من ذلك. ومن ههنا يظهر أن النبى سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه الله له من الملك ، وسخر له من الجنود ، الذى لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحد من بعده. وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتى بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه، فلما قال سليمان: أريد أعجل من ذلك ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ قال ابن عباس: وهو آصف كاتب سليمان .

وقوله: ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أى: ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه فلما عاين سليمان وملؤه ذلك ، ورآه مستقراً عنده ، ﴿ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾ أى: هذا من نعم الله على ﴿ لِيَبْلُوَنِي ﴾ أى: ليختبرنى ﴿ أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾، كقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : ٤٦] ، وكقوله : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم: ٤٤]. وقوله: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ﴾ أى: هو غنى عن العباد وعبادتهم ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أى: كريم فى نفسه، وإن لم يعبده أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، هذا كما قال موسى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] . وفى صحيح مسلم: « يقول الله تعالى : يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً. يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً. يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »(١) .

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

لما جىء سليمان، عليه السلام، بعرش بلقيس قبل قدومها، أمر به أن يغير بعض صفاته ، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس به، فقال: ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ قال ابن عباس : نزع عنه فصوصه ومرافقه. وقال مجاهد: أمر به فغير ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ أى: عرض عليها عرشها ، وقد غير ونكر، وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لب ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها، ولا أنه غيره، لما رأت من آثاره وصفاته وإن غير وبدل ونكر، فقالت: ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ أى: يشبهه ويقاربه. وهذا غاية فى الذكاء والحزم . وقوله: ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ قال مجاهد: سليمان يقوله .

(١) مسلم (٢٥٧٧ / ٥٥) .

وقوله : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ : هذا من تمام كلام سليمان ، عليه السلام ـ فى قول مجاهد ، وسعيد بن جبير ـ أى : قال سليمان : ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ ، وهى كانت قد صدها ، أى : منعها من عبادة الله وحده ﴿ مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ . وهذا الذى قاله مجاهد وسعيد حسن ، وقاله ابن جرير أيضا . ثم قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون فى قوله : ﴿ وَصَدَّهَا ﴾ ضمير يعود إلى سليمان ، أو إلى الله ، عزوجل ، تقديره : ومنعها ﴿ مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : صدها عن عبادة غيرالله ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ . قلت : ويؤيده قول مجاهد : أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح ، كما سيأتى .

وقوله : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ وذلك أن سليمان ، عليه السلام ، أمر الشياطين فبنوا لها قصراً عظيما من قوارير ، أى : من زجاج ، وأجرى تحته الماء ، فالذى لا يعرف أمره يحسب أنه ماء ، ولكن يحول بين الماشى وبينه . فلما دخلت وكشفت عن ساقيها ، رأى أحسن الناس ساقا وأحسنهم قدماً ، ولكن رأى على رجليها شعراً ؛ لأنها ملكة ليس لها بعل ، فأحب أن يذهب ذلك عنها فقيل لها : الموسى ؟ فقالت : لا أستطيع ذلك . وكره سليمان ذلك ، وقال للجن : اصنعوا شيئاً غير الموسى يذهب به هذا الشعر ، فصنعوا له النورة . وكان أول من اتخذت له النورة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة وابن جريج ، وغيرهم . ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ ، لانشك أنه ماء تخوضه ، قيل لها : ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ أصل الصرح فى كلام العرب : هو القصر ، وكل بناء مرتفع ، قال الله ، سبحانه وتعالى ، إخباراً عن فرعون ـ لعنه الله ـ أنه قال لوزيره هامان : ﴿ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ الآية [غافر : ٣٦ ، ٣٧] ، والصرح : قصر فى اليمن عالى البناء ، والممرد ، أى : المبنى بناء محكما أملس ﴿ مِن قَوَارِيرَ ﴾ أى : زجاج . وتمريد البناء تمليسه . ومارد : حصن بدومة الجندل . والغرض أن سليمان ، عليه السلام ، اتخذ قصراً عظيما منيفًا من زجاج لهذه الملكة ؛ ليريها عظمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما آتاه الله ، تعالى ، وجلالة ما هو فيه ، وتبصرت فى أمره انقادت لأمر الله وعرفت أنه نبى كريم ، وملك عظيم ، فأسلمت لله ، عز وجل ، وقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أى : بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس من دون الله ، ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : متابعة لدين سليمان فى عبادته لله وحده ، لا شريك له ، الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح ، عليه السلام ، حين بعثه الله إليهم ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ قال مجاهد : مؤمن وكافر ، كقوله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٧٥ ، ٧٦] . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أى : لم تدعون بحضور العذاب ، ولا تطلبون من الله رحمته ؟ ولهذا قال : ﴿ لَوْلَا

تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أى : مارأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً . وذلك أنهم ـ لشقائهم ـ كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال : هذا من قبل صالح وأصحابه . قال مجاهد : تشاءموا بهم.وهذا كما قال تعالى إخباراً عن قوم فرعون: ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الاعراف:١٣١] .وقال تعالى : ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [النساء:٧٨] أى:بقضاء الله وقدره. وقال مخبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ [يس : ١٨، ١٩] . وقال هؤلاء: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ أى: الله يجازيكم على ذلك ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ قال قتادة : تبتلون بالطاعة والمعصية . والظاهر أن المراد بقوله : ﴿ تُفْتَنُونَ﴾ أى : تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤومهم،الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح،وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة،وهموا بقتل صالح ايضاً،بان يبيتوه فى أهله ليلا فيقتلوه غيلة،ثم يقولوا لاوليائه من أقربيه:إنهم ما علموا بشىء من أمره،وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به، من أنهم لم يشاهدوا ذلك،فقال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أى: مدينة ثمود ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أى:تسعة نفر ﴿ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود؛لانهم كانوا كبراء فيهم ورؤساءهم . قال ابن عباس: هؤلاء هم الذين عقروا الناقة،أى:الذين صدر ذلك عن آرائهم ومشورتهم ـ قبحهم الله ولعنهم ـ وقد فعل ذلك . قال الله تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ [الشمس : ١٢] . وقال عطاء بن أبى رباح : ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ قال : كانوا يقرضون الدراهم ، يعنى:أنهم كانوا يأخذون منها،وكأنهم كانوا يتعاملون بها عدداً،كما كان العرب يتعاملون . وقال سعيد بن المسيب : قطع الذهب والورق من الفساد فى الأرض .والغرض : أن هؤلاء الكفرة الفسقة،كان من صفاتهم الإفساد فى الارض بكل طريق يقدرون عليها،فمنها ما ذكره هؤلاء الائمة وغير ذلك .

وقوله: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أى:تحالفوا وتبايعوا على قتل نبى الله صالح، عليه السلام، من لقيه ليلا غيلة.فكادهم الله ، وجعل الدائرة عليهم . قال مجاهد : تقاسموا وتحالفوا على هلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين. وقال ابن عباس:هم الذين عقروا الناقة،قالوا حين عقروها: لنبيتنَّ صالحا وأهله فنقتلهم،ثم نقول لاولياء صالح:ما شهدنا من هذا شيئاً،وما لنا به علم.فدمرهم الله أجمعين .وقال عبد الرحمن بن أبى حاتم:لما عقروا الناقة وقال لهم صالح: ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود :٦٥]، قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام، فنحن

نفرغ منه وأهله قبل ثلاث. وكان لصالح مسجد فى الحجر عند شعب هناك يصلي فيه، فخرجوا إلى كهف، أى: غار هناك ليلا، فقالوا: إذا جاء يصلى قتلناه، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله، ففرغنا منهم. فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم، فخشوا أن تشدخهم فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم فى ذلك الغار، فلا يدرى قومهم أين هم. ولا يدرون ما فعل بقومهم. فعذب الله هؤلاء ههنا، وهؤلاء ههنا، وانجى الله صالحاً ومن معه، ثم قرأ: ﴿ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية ﴾ أى: فارغة ليس فيها أحد ﴿ بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

الجزء ٢٠

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط، عليه السلام، أنه أنذر قومه نقمة الله بهم، فى فعلهم الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من نبى آدم، وهى إتيان الذكور دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة، استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، فقال: ﴿ أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ﴾ أى: يرى بعضكم بعضاً، وتأتون فى ناديكم المنكر؟ ﴿ أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ﴾ أى: لا تعرفون شيئاً لا طبعاً ولا شرعاً، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ أتأتون الذكران من العالمين. وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]. ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ أى: يتحرجون من فعل ما تفعلون، ومن إقراركم على صنيعكم، فأخرجوهم من بين أظهركم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم فى بلادكم فعزموا على ذلك، فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، قال الله تعالى: ﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ﴾ أى: من الهالكين مع قومها؛ لأنها كانت ردءاً لهم على دينهم، وعلى طريقتهم فى رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط، ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبى الله ﷺ لا كرامة لها.

وقوله: ﴿ وأمطرنا عليهم مطرا ﴾ أى: حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد؛ ولهذا قال: ﴿ فساء مطر المنذرين ﴾ أى: الذين قامت عليهم الحجة، ووصل إليهم الإنذار، فخالفوا الرسول وكذبوه، وهموا بإخراجه من بينهم.

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول: ﴿ الحمد لله ﴾ أى: على نعمه على عباده، من النعم التى لا تعد ولا تحصى، وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى، وأن يسلم على عباد الله الذين

اصطفاهم واختارهم ، وهم رسله وأنبياؤه الكرام ، عليهم من الله الصلاة والسلام ، هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيره : إن المراد بعباده الذين اصطفى : هم الأنبياء ، قال : وهو كقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٠ ـ ١٨٢] . وقال الثورى، والسدى: هم أصحاب محمد ﷺ ورضى عنهم أجمعين ، وروى نحوه عن ابن عباس. ولا منافاة، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى، فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى، والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ما ذكر لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد، وما أحل بأعدائه من الخزى والنكال والقهر، أن يحمدوه على جميع أفعاله، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار. وقوله: ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾: استفهام إنكار على المشركين فى عبادتهم مع الله آلهة أخرى .

ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره ، فقال : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أى : تلك السموات بارتفاعها وصفائها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة، والأرض باستفالها وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال والأوعار والسهول، والفيافى والقفار، والأشجار والزروع، والثمار والبحور ، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك .

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أى: جعله رزقاً للعباد ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ أى: بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أى: منظر حسن وشكل بهى ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أى: لم تكونوا تقدرون على إنبات شجرها ، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق، المستقل بذلك المتفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون، كما قال تعالى فى الآية الاخرى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف : ٨٧] ، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦٣] أى : هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو المتفرد بالخلق والرزق؛ ولهذا قال : ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أى : أإله مع الله يعبد . وقد تبين لكم ولكل ذى لب مما يعرفون به أيضاً أنه الخالق الرازق . ومن المفسرين من يقول: معنى قوله: ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ أى : أإله مع الله فعل هذا . وهو يرجع إلى معنى الأول؛ لأن تقدير الجواب أنهم يقولون: ليس ثم أحد فعل هذا معه ، بل هو المتفرد به . فيقال : فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والتدبير ؟ كما قال : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل : ١٧] . وقوله ههنا : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ : ﴿ أَمَّنْ ﴾ فى هذه الآيات كلها تقديره : أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شىء منها ؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر .

ثم قال : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ أى : يجعلون لله عدلا ونظيراً . وهكذا قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : ٩] أى: أمن هو هكذا كمن ليس كذلك ؟ ولهذا قال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٩] ، ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر : ٢٢]، وقال : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد: ٣٣] أى: أمن هو شهيد على أفعال الخلق، حركاتهم

Obeikandl.com

وسكناتهم، يعلم الغيب جليله وحقيره ، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التى عبدوها ؟ ولهذا قال: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ [الرعد : ٣٣] ، وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها .

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أى : قارة ساكنة ثابتة ، لا تميد ولاتتحرك لأهلها ولا ترجف بهم ، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة ، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بساطا ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ [غافر : ٦٤] . ﴿ وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ﴾ أى : جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها فى خلالها، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، بحسب مصالح عباده فى أقاليمهم وأقطارهم حيث زرأهم فى أرجاء الأرض ، سير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ، ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ أى : جبالاً شامخة ترسى الأرض وتثبتها ؛ لئلا تميد بكم ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ أى : جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً، أى: مانعاً يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضى بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس .والمقصود منها: أن تكون عذبة زلالا تسقى الحيوان والنبات والثمار منها.والبحار المالحة هى المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب ، والمقصود منها: أن يكون ماؤها ملحاً أجاجا؛ لئلا يفسد الهواء بريحها ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٥٣] ؛ ولهذا قال : ﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى : فعل هذا ؟ أو يعبد على القول الأول والآخر؟ وكلاهما متلازم صحيح ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أى: فى عبادتهم غيره .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، وهكذا قال ههنا : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ أى: من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذى لا يكشف ضر المضرورين سواه .

روى الإمام أحمد عن رجل من بلهجيم (١) قال : قلت : يارسول الله ، إلام تدعو ؟ قال : « أدعو إلى الله وحده ، الذى إن مسك ضر فدعوته كشف عنك ، والذى إن أضللت بأرض قفر فدعوته رد عليك، والذى إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك » .قال : قلت : أوصنى.قال: « لا تسبن أحداً ،ولا تزهدن فى المعروف، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى ،واتزر إلى نصف الساق،فإن أبيت فإلى الكعبين.وإياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يحب المخيلة » (٢).

(١)وهو : جابر بن سليم الهجيمى ، كما صرح به فى المسند (٥ / ٦٣) .
(٢)المسند (٥ / ٦٤) وأبو داود (٤٠٨٤) وصححه الألبانى .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ أى : قرنا لقرن قبلهم وخلفاً لسلف ، كما قال تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ [الأنعام : ١٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] ، أى قوماً يخلف بعضهم بعضا . وهكذا هذه الآية : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ أى : أمة بعد أمة ، وجيلاً بعد جيل ، وقوماً بعد قوم . ولو شاء لأوجدهم كلهم فى وقت واحد ، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض ، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين ، كما خلق آدم من تراب . ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع فى وقت واحد ، فكانت تضيق عليهم الأرض ، وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم ، ويتضرر بعضهم ببعض . ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ، ثم يكثرهم غاية الكثرة ، ويذرأهم فى الأرض ، ويجعلهم قرونا بعد قرون ، وأمما بعد أمم ، حتى ينقضى الأجل وتفرغ البرية ، كما قدر ذلك تبارك وتعالى ، وكما أحصاهم وعدهم عداً ، ثم يقيم القيامة ، ويوفى كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ أى : يقدر على ذلك ، أو إله مع الله يعبد ، وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى : ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

يقول : ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أى : بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية ، كما قال : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : ١٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ الآية [الأنعام : ٩٧] . ﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى : بين يدى السحاب الذى فيه مطر ، يغيث به عباده المجدبين الآزلين القنطين ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

أى : هو الذى بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج : ١٢ ، ١٣] ، وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] . ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ أى : بما ينزل من مطر السماء ، وينبت من بركات الأرض ، كما قال : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ [الطارق : ١١ ، ١٢] ، وقال : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [الحديد : ٤] ، فهو تبارك وتعالى ، ينزل من السماء ماء مباركا فيسكنه فى الأرض ، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والثمار والأزاهير ، وغير ذلك من ألوان شتى ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى ﴾ [طه : ٥٤] ؛ ولهذا قال : ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ أى : فعل هذا . وعلى القول الآخر : يعبد ؟ ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى ذلك ، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان ، كما قال الله : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ

لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٧] .

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق: أنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب. وقوله: ﴿ إلا الله ﴾ استثناء منقطع، أى : لا يعلم أحد ذلك إلا الله، عز وجل، فإنه المنفرد بذلك وحده، لا شريك له ، كما قال : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الآية [الأنعام: ٥٩] ، وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : ٣٤] ، والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله: ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أى: وما يشعر الخلائق الساكنون فى السموات والأرض بوقت الساعة ، كما قال: ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ [الاعراف : ١٨٧] ،أى: ثقل علمها على أهل السموات والأرض . وروى ابن أبى حاتم عن عائشة قالت : من زعم أنه يعلم ـ يعنى النبى ﷺ ـ ما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ لَا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (١) . وقال قتادة: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصلات: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً للشياطين ، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به. وإن ناساً جهلة بأمر الله، قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا، كان كذا كذا. ومن سافر بنجم كذا وكذا ،كان كذا وكذا . ومن ولد بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا. ولعمرى ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود، والقصير والطويل، والحسن والدميم، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشىء من الغيب! وقضى الله: أنه لا يعلم من السموات والأرض الغيب إلا الله، وما يشعرون أيان يبعثون . رواه ابن أبى حاتم عنه بحروفه، وهو كلام جليل متين صحيح .

وقوله: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ أى: انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها . وقرأ آخرون : « بل أدرك (٢) علمهم » أى: تساوى علمهم فى ذلك ، كما فى الصحيح لمسلم : أن رسول الله ﷺ قال لجبريل ـ وقد سأله عن وقت الساعة :ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » (٣) أى : تساوى فى العجز عن درك ذلك علم المسؤول والسائل . قال ابن عباس : ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أى : غاب . وقال قتادة: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ يعنى : بجهلهم بربهم، يقول : لم ينفذ لهم إلى الآخرة علم، هذا قول . وقال ابن جريج، عن عطاء الخراسانى، عن ابن عباس: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ حين لم ينفع العلم، وبه قال عطاء الخراسانى، والسدى: أن علمهم إنما يدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [مريم : ٣٨].

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ عائد على الجنس ، والمراد الكافرون ، كما قال تعالى :

(١) البخارى (٤٨٥٥) ومسلم (٢٨٧ /-١٧٧) بنحوه .
(٢) قراءة أبى جعفر وابن كثير وأبى عمرو بن حميد .
(٣) مسلم (٩ / ٥) .

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف : ٤٨] أى : الكافرون منكم. وهكذا قال ههنا: ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ أى : شاكون فى وجودها ووقوعها، ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أى: فى عماية وجهل كبير فى أمرها وشأنها .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۝ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن منكرى البعث من المشركين: أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً، ثم قال : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ أى: ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا، ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً. وقولهم: ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ :يعنون: ما هذا الوعد بإعادة الابدان ﴿ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى: أخذه قوم عمن قبلهم ، من كتبهم يتلقاه بعض عن بعض، وليس له حقيقة. قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد: ﴿ قُلْ ﴾ يامحمد لهؤلاء: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى : المكذبين بالرسل وما جاؤوهم به من أمر المعاد وغيره، كيف حلت بهم نقم الله وعذابه ونكاله ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين ، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته .

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى :المكذبين بما جئت به ، ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات ﴿ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أى : فى كيدك ورد ما جئت به، فإن الله مؤيدك وناصرك، ومظهر دينك على من خالفه وعانده فى المشارق والمغارب .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين، فى سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال الله مجيباً لهم : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ قال ابن عباس:أن يكون قرب ـ أو : أن يقرب ـ لكم بعض الذى تستعجلون . وهكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والسدى . وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء : ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٥٤] .

ثم قال تعالى:﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أى:فى إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى : يعلم السرائر والضمائر ، كما يعلم الظواهر ، ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ ﴾ [الرعد : ١٠] ، ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] ، ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [هود : ٥] . ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة ـ وهو ما غاب عن العباد وما

شاهدوه ـ فقال : ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : يعنى : وما من شىء ﴿ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠] .

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وما اشتمل عليه من الهدى والبينات والفرقان: أنه يقص على بنى إسرائيل ـ وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾، كاختلافهم فى عيسى وتباينهم فيه، فاليهود افتروا، والنصارى غلوا، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام، عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم: ٣٤] .

قوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: هدى لقلوب المؤمنين، ورحمة لهم . ثم قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أى: يوم القيامة ﴿ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فى انتقامه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم. ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى: فى أمورك ، وبلغ رسالة ربك ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ أى : أنت على الحق المبين وإن خالفك ، ممن كتبت عليه الشقاوة وحقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ ﴾ أى لا تسمعهم شيئاً ينفعهم ، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة ، وفى آذانهم وقر الكفر ؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أى : إنما يستجيب لك من هو سميع بصير، السمع والبصر النافع فى القلب والبصيرة ، الخاضع لله ، ولما جاء عنه على ألسنة الرسل ، عليهم السلام .

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ربع

هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض ـ قيل : من مكة . وقيل: من غيرها ـ فتكلم الناس على ذلك . قال ابن عباس، والحسن، وقتادة ـ وروى عن على : تكلمهم كلاما ، أى : تخاطبهم مخاطبة . وقال عطاء الخراسانى : تكلمهم فتقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون . ويروى هذا عن على، واختاره ابن جرير. وفى هذا القول نظر لا يخفى ، والله أعلم . وقال ابن عباس ـ فى رواية ـ : تجرحهم . وعنه رواية ، قال : كُلماً تفعل، يعنى هذا وهذا، وهو قول حسن ، ولا منافاة ، والله أعلم .

وقد ورد فى ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة ، منها : روى الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : لا تقوم الساعة

حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ،والدجال ، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق ـ أو : تحشر ـ الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا » . وهكذا رواه مسلم وأهل السنن ، وقال الترمذى : حسن صحيح . ورواه مسلم موقوفاً والله أعلم (١). وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال:حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد: سمعت رسول الله ﷺ يقول:« إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى ،وأيتهما ما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على إثرها قريباً » (٢). وروى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « بادروا بالأعمال ستا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان ، أو الدجال ،أو الدابة،أو خاصة أحدكم ،أو أمر العامة » . وفى رواية : « بادروا بالأعمال ستا : الدجال ، والدخان ، ودابة الأرض ، وطلوع الشمس من مغربها ، وأمر العامة، وخويصة أحدكم » (٣) .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّا ذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة ، وحشر الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدى الله، عز وجل،ليسألهم عما فعلوه فى الدار الدنيا ، تقريعاً وتوبيخاً ، وتصغيراً وتحقيراً فقال :﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ أى : من كل قوم وقرن فوجاً ، أى: جماعة ﴿ مِمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصافات:٢٢] ،وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير:٧] . وقوله: ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ قال ابن عباس : يدفعون . وقال قتادة : وَزَعَةٌ ترد أولهم على آخرهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يساقون .

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا﴾ أى : أوقفوا بين يدى الله ، عز وجل ،فى مقام المساءلة ﴿ قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : ويسألون عن اعتقادهم، وأعمالهم، فلما لم يكونوا من أهل السعادة،وكانوا كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى. وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [القيامة : ٣١ ،٣٢]،فحينئذ قامت عليهم الحجة،ولم يكن لهم عذر يعتذرون به،كما قال تعالى:﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ. وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات:٣٥ ـ ٣٧] ، وهكذا قال ههنا: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أى : بهتوا فلم يكن لهم جواب ؛ لأنهم كانوا فى الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذى لا تخفى عليه خافية .

ثم قال تعالى منبهاً على قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ، وشأنه الرفيع الذى تجب طاعته

---

(١) المسند (٤/ ٦ ، ٧) ومسلم (٢٩٠١ / ٣٩) والترمذى (٢١٨٣).
(٢) مسلم (٢٩٤١ / ١١٨). (٣) مسلم (٢٩٤٧ / ١٢٨).

والانقياد لأوامره ، وتصديق أنبيائه فيما جاؤوا به من الحق الذى لا محيد عنه ، فقال: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أى: فيه ظلام تسكن بسببه حركاتهم ، وتهدأ أنفاسهم ، ويستريحون من نصب التعب فى نهارهم ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أى :منيراً مشرقاً، فبسبب ذلك يتصرفون فى المعايش والمكاسب، والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شؤونهم التى يحتاجون إليها ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع فى الصُّور،وهو كما جاء فى الحديث: « قرن ينفخ فيه»(١) .وفى حديث (الصُّور) أن إسرافيل هو الذى ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولا نفخة الفزع ويطولها ، وذلك فى آخر عمر الدنيا ، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء ، فيفزع من فى السموات ومن فى الأرض ﴿ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾،وهم الشهداء،فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون . روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو ، وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذى تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله ـ أو : لا إله إلا الله ـ أو كلمة نحوهما ـ لقد هممت ألا أحدث أحداً شيئا أبدا ، إنما قلت : إنكم مترون بعد قليل أمراً عظيماً يخرب البيت ، ويكون ويكون . ثم قال:قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين ـ لا أدرى أربعين يوماً ، أو أربعين شهراً ، أو أربعين عاماً ـ فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبه فيهلكه . ثم يمكث الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدهم دخل فى كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه » . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ ، قال : « فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ،فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون: فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم فى ذلك دار رزقهم ، حسن عيشهم . ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتا » . قال : « وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله ». قال : « فيَصْعَقُ ويَصعقُ الناس ، ثم يرسل الله ـ أو قال : ينزل الله مطراً كأنه الطل ـ أو قال : الظل ـ نعمان الشاك ـ فتنبت منه أجساد الناس ، ثم يُنْفَخُ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . ثم يقال : يأيها الناس ، هلموا إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسؤولون .ثم يقال:أخرجوا بعث النار . فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين » . قال : « فذلك يوم يجعل الولدان شيبا ، وذلك يوم يكشف عن ساق »(٢).

وقوله : « ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا » ، الليت : هو صفحة

(١) المسند (٦٥٠٧) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .
(٢) مسلم (٢٩٤٠ / ١١٦) .

العنق ، أى : أمال عنقه ليستمعه من السماء جيداً . فهذه نفخة الفزع . ثم بعد ذلك نفخة الصعق، وهو الموت. ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ أى : صاغرين مطيعين ، لا يتخلف أحد عن أمره ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : ٥٢] ، وقال : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم:٢٥].

وفى حديث الصور : أنه فى النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح ، فتوضع فى ثقب فى الصور، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعد ما تنبت الأجساد فى قبورها وأماكنها ، فإذا نفخ فى الصور طارت الأرواح، تتوهج أرواح المؤمنين نوراً ،وأرواح الكافرين ظلمة ، فيقول الله ، عز وجل : وعزتى وجلالى لترجعن كل روح إلى جسدها. فتجىء الأرواح إلى أجسادها، فتدب فيها كما يدب السم فى اللديغ ، ثم يقومون فينفضون التراب من قبورهم ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج : ٤٣]

وقوله: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ أى : تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهى تمر مر السحاب، أى: تزول عن أماكنها، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ [الطور : ٩ ، ١٠] ، وقال: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٥ ـ ١٠٧] ،وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف : ٤٧] .

وقوله: ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أى : يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذى قد أتقن كل ما خلق، وأودع فيه من الحكمة ما أودع ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ أى: هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر فيجازيهم عليه.

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ قال قتادة : بالإخلاص. وقال زين العابدين: هى لا إله إلا الله، وقد بين فى المكان الآخر أن له عشر أمثالها ﴿ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] ، وقال: ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [فصلت: ٤٠] ، وقال : ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ [سبأ:٣٧] .

وقوله: ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ أى: من لقى الله مسيئاً لا حسنة له ، أو : قد رجحت سيئاته على حسناته ، كل بحسبه ؛ ولهذا قال : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . وقال ابن مسعود وأبو هريرة وابن عباس ، وأنس بن مالك ، وعطاء ، وسعيد ابن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد فى قوله: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ يعنى : بالشرك .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً رسوله وآمراً له أن يقول : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾، كما قال : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ [يونس : ١٠٤] .وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها ، كما قال :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش:٣ ، ٤]. وقوله: ﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ أى: الذى إنما صارت حراماً قدراً وشرعاً ، بتحريمه لها ، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا لمن عرفها، ولا يتخلى خلاها» الحديث بتمامه. وقد ثبت فى الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع(١).

وقوله : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾: من باب عطف العام على الخاص ، أى : هو رب هذه البلدة ، ورب كل شىء ومليكه ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى: الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له. وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ أى : على الناس أبلغهم إياه ، كقوله : ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران:٥٨] ، وكقوله : ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص : ٣] أى: أنا مبلغ ومنذر ، ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ أى: لى أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم ، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم،وخلصوا من عهدتهم ، وحساب أممهم على الله ، كقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقال: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود : ١٢]

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أى:لله الحمد الذى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإعذار إليه ؛ ولهذا قال : ﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت : ٥٣] . وقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : بل هو شهيد على كل شىء . وقد ذكر عن الإمام أحمد أنه كان ينشد هذين البيتين ، إما له أو لغيره

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يوماً فلاَ تَقُلْ ... خَلَوْتُ ولكن قُل عَلَىَّ رقيبُ
ولاَ تَحْسَبَنَّ اللـه يَغْفَلُ سَاعَةً ... ولاَ أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

(١) البخارى (١٨٣٤) ومسلم (١٣٥٣ / ٤٤٥) وأبو داود (٢٠١٨) . وهو فى المسند (٢٣٥٣) .